الزوجـــــة

للكاتب الأمريكى واشنجتون ارفنج

تعريب

الأستاذ حسن شريف الرشيدى

المدرس بمدرسة الظاهر الأميرية

كنت دائما ألاحظ شجاعة النساء التى يقابلن بها تقلبات الدهر وضرباته . ويظهر أن تلك المصائب التى تثبط عزيمة الرجل ، وتجعله فى حالة يأس شديد تبعث فى هذه النفوس الحساسة كثيرا من الشجاعة والنبل . ولا شىء يؤثر على الانسان أكثر من أن يرى هذه المرأة ـ التى كانت فيما مضى مثال الضعف والاتكال على زوجها والتى كانت تتأثر بأقل خشونة زمن تلألىء نجم زوجها فى الحياة ـ نراها قد سمت قواها العقلية فأصبحت هى المعين له عند أفول نجمه متحملة بثبات يدعو إلى الاعجاب أقسى ضربات القدر .

وكما تحمل ساق الكرم أوراقها الخضراء ، وتعلو حتى تصل بها إلى نور الشمس ، فاذا ماهبت العاصفه وأرادت أن تعصف بتلك الساق ، نرى تلك الأوراق تحنو عليها أو تلتف حولها تمنع عن فروعها تأثير العاصفه . كذلك اختارت العناية الآلهية المرأة التى هى أنشودة الرجل فى ساعات مرحه لتكون عزاءه ومساعده فى الشدائد المباغتة . فترفع رأسه المنكسة وتجبر قلبه الكسير

ولقد كنت مرة أهنىء صديقا لى كان محوطا بعائلة سعيدة تربطها بعضها

ببعض أواصر الحب والاخلاص ، قال لى مرة وهو يشتعل حماسا . «أنا لاأرجو لك إلا أن تحصل على مثل سعادتى تلك ، فيكون لك زوجة وأطفال . فأذا كنت موفقا ، يساهمونك نصيبهم . و إذا اصطدمت والقدر ، كانوا لك خير سلوى وعزاء» . وفى الحق أنى لاحظت الرجل المتزوج يكون أكثر استعداداً لاستعادة مكانته فى الحياة من الرجل الأعزب . وذلك لأن الأول مدفوع إلى الجهاد بحاجيات هؤلاء المخلوقات المحبوبة التى تحيط به وتعتمد عليه كربّ لهم . وثمة ماهو أكثر من ذلك أهمية ، وهو شعور النفس بالطمأنينة والحب العائلى . فبينما لايجد خارج المنزل إلا اليأس والهوان فأنه لا يزال له فى داخله مملكة صغيرة قوامها الحب والولاء ، وهو ملكها . ذلك بينما الأعزب عرضة لأن يركن إلى الكسل و إهمال نفسه ، فيظن نفسه وحيدا مهجورا ، فيهبط قلبه إلى قرارة اليأس مثله كمثل القصر المهجور يزداد تداعيا وخرابا بابتعاد أهله وساكنيه عنه .

تعيد إلى ذهنى تلك الذكريات قصة عائلة شاهدت وقائعها بنفسى . فقد كان لى صديق عزيز يدعى (ليزلى) وقد تزوج بآنسة مهذبة جميلة . أتمت تربيتها وحياتها الأولى فى وسط مهذب راق . و إنه و إن لم تكن تمتلك ثروة ، فأن ثروة صديقى كانت تكفل لها حياة طيبة . وكان لا يضن عليها مطلقا بما يزيدها متعة وسعادة و يؤدى لها كل كمالياتها التى تنشر جوا من السحر والجمال ، حول هذا الجنس اللطيف . قال مرة : « سأجعل حياتها كقصة خياليه » .

وقد جعل بينهما اختلافهما فى الصفات ارتباطا موفقا ، فكان هو شعرى العاطفة ، ذا خلق هادئ ثابت بينما كانت هى مثال المرح والحبور . فقد لاحظت عليه دائما ذلك السرور الهادئ الذى كان يلحظها به عند ماتكون معه فى المجتمع حيث تنشر فيه جواً من البهجة والحياة . وفى وسط الأعجاب بها من كل ناحية لاتقع عينها إلا عليه كأنها تطلب إليه وحده القبول والاستحسان . وعند ماتعتمد على ذراعه ، تجـــد التباين واضحاً وجميلا بين قوامها الرشيق و بين شخصه الطويل القوى . و يظهر أن نظرة الأخلاص التى ترمقه بها كانت تبعث فيـــه شعور

الأحساس بالظفر والفخر . فما أجملهما زوجين يقطعان طريقا كله ورود ممتلئين آمالا يبنيان عليها سعادتهما المقبله .

طوحت الأقدار بصديقى هذا ، وذلك لأنه عرض ثروته فى مشروعات واسعة ذات خطورة ، فلم يمض على زواجه شهور كثيرة حتى تتابعت عليه الخسائر المفاجئة فأصبح وكأنه لم يملك شيئا . وظل محتفظاً فى نفسه بحاله السيئة مدة ما ، إلا أن شحوب وجهه كان ينم على حقيقة حاله . وكانت حياته سلسلة آلام موجعه ومما جعلها صعبة الاحتمال حاجته إلى الابتسام دائما أمام زوجته ، فلم يكن فى وسعه أن يحطم آمالها بأن يسرّ إليها بحالته . ولكنها رأت بعين الحب التى تخترق الحجب سريعا ، أنه فى ألم مستتر . إذ لاحظت عليه نظراته الزائغة وتأوهاته الصامته . ولم تكن لتخدع بمحاولته الفاشلة فى ادعاء المرح . وقد حاولت جهدها أن تعيد إليه هناءه المفقود ولكنها لم تكن إلا لتزيد فى ألم نفسه . وكلما رأى منها مايزيده حباً لها كان تألم نفسه أشد ، وبخاصة عند مايرى أنه سوف يسبب لها التعاسة والشقاء ، فكان يفكر فى أن تلك الابتسامة سوف تختفى بعد قليل من هذا الخد المورد ، وسوف لاتسمع بعد تلك النغمات العذبة من هذه الشفاه الرقيقة وسوف ينطفىء من الحزن ذلك النور المشرق الذى ينبعث من تلك العينين النجلاوين ، وسوف يتحطم ذلك القلب الذى كان يخفق بالسعادة ، بضنك الحياة المقبلة وشقائها .

وأخيرا جاء إلىّ يوما ما ، وقص على مابه - فى رنة حزن وأسى - حتى إذا ما انتهى من قصته سألته : « هل تعرف زوجك كل هذا » فأجاب وقد طفق يبكى و ينتحب : « بحق الله إن كانت لديك بقية من الشفقة على فلاتذكر زوجى فان مجرد تفكيرى فيها يسوقنى للجنون » . فأجبته : « ولماذا لا تخبرها ؟ إنها لاشك سوف تعلم ذلك عاجلا أو آجلا . وربما بلغ إليها الخبر فى حالة مفزعة أكثر مما لو بلغتها إياه بنفسك ، ومن نبرات من نحب تخفف دائما من وطأة أشد الأخبار وقعا . أضف إلى ذلك أنك حرمت نفسك من مواساتها لك وحنانها عليك .

وليس ذلك فحسب . بل إنك عرضت للانحلال تلك الرابطة الوحيدة التى تربط قلبيكما بعضهما ببعض ، وهى المشاركة فى الشعور والتفكير . وسترى هى عاجلا أن شيئاً ألم بك يقض عليك مضجعك . والحب الصحيح لايحتمل التحفظ والكتمان بل يشعر بضعف قيمته عند ماتخفى عنه أحزان محبوبه .

فقال : « آه ياصديقى ! ماأصعب التفكير فى الطعنة التى سأصيبها به فتحطم آمالها المستقبلة . كيف تنهد نفسها الشامخة ساعة أن تعلم أن زوجها لا يملك قوت يومه ؟ وأنها سوف تحرم كل مباهج الحياة ومسرات المجتمع ، وتنزوى معى فى ظلمة الفقر والحاجة ؟ وأنى سوف أنتزعها من عالم البهجة الدائم الذى كانت تخطر فيه - نور كل عين - وأعجاب كل قلب ؟ فكيف تتحمل مثل هذه الفقر وقد شبت محاطة بكل أنواع الترف والثروة ؟ وكيف تتحمل هجر المجتمع وقد كانت معشوقته ؟ إن ذلك ليحطم منها القلب و يهد منها الفؤاد »

رأيت كآبته عميقة وتركتها تنفجر لأن الحزن يخفف من لوعته بالكلمات الصادرة من القلب . وعند ما سكنت عاصفة حزنه ، وتحولت إلى صمت محزن عميق ، أعدت عليه الكرة تدريجا ، وأقنعته بأن يبلغ حالا زوجه عما أصابه من محنة . فهز رأسه باكتئاب مصمما على السكون .

فسألته : « ولكن كيف يمكنك أن تستمر فى إخفاء ذلك عنها ؟ فمن الضرورى أن تعرفه حتى تعد العدة لتبدل حالك ، إذ ينبغى أن تغير طريقة المعيشة ... » عند ذلك لاحظت عليه سحابة ألم ففاجأته قائلا : « لاتجعل لذلك فى نفسك من هم . فأنى لواثق من أنك لم تطلب سعادتك من طريق المظاهر المادية ، فأنه لايزال لك أصدقاء أوفياء سوف لايتركون صحبتك لأنك لاتسكن سكنا فخما . كما أنى واثق أيضا أن سعادتك مع مارى لا تتوقف على أن تسكنا قصرا فخما . »

فصاح متأثرا : « إنى أكون سعيدا معها ولو قضينا حياتنا فى عشة . إنى يمكنى أن أنزل معها إلى الفقر والحضيض . يمكنى - يمكنى - عسى أن يحوطها الله برعايته ... » واستمر فى تأوهاته المؤثرة .

قلت له : « وبما أنك الآن قد أجتزت أقصى مرحلة باعترافك لها بحالك فيحسن أيضا أن تبادر وتظهر حقيقة مركزك للعالم . فأنه وإن كان هذا الظهور مؤلما فأن تأثيره لا يلبث حتى يزول . وعندى أن هذا خير لك من أن تعانى فى ترددك ألم الكتمان كل يوم وكل ساعة . ليس الفقر هو الذى يزعج الرجل المعوز ، ولكنه الكفاح بين النفس السامية واليد الخالية ، والاحتفاظ بالمظهر الكاذب الذى ما أسرع أن تنكشف حقيقته . فلتكن لديك الشجاعة لأن تظهر فقيرا فبذلك تجرد الفقر من أحدّ سلاح له . » وما وصلت إلى هذه النقطة حتى وجدت «ليزلى» متأهبا لقبول نصيحتى . أما زوجه فكانت فى اشتياق لتحيا الحياة الجديدة التى تتفق وحالهما الجديدة .

مضت أيام عدة على ذلك ثم زارنى مساء . وكان قد باع مسكنه ثم اكترى كوخا صغيرا فى الريف يبعد أميالا قليلة عن المدينة ، وقد شغل طيلة يومه فى بيع أثاثاته الأولى الفاخرة . أما منزله الجديد فلم يكلفه إلا يسيرا ، ولذلك لم يبق على شىء من مفروشاته الثمينة ، إلا قيثارة زوجه ، لأنها كانت ذكرى لقصة حبهما ، فكان إذا مارآها يذكر تلك اللحظات السعيدة التى كان يصغى ، فيها إلى زوجه وهى معتمدة على هذه القيثارة توقع عليها من أنغامها العذبة . ولم يسعنى إلا الابتسام إزاء هذا المثل الأعلى للزوج المحب الخيالى .

كان عند زيارتى متأهبا للذهاب إلى الكوخ حيث زوجه منهمكة فى ترتيبه وتنظيمه . فدفعنى سرورى بنجاح هذه القصة العائلية لأن أرافقه ، خصوصا وأنه كان مساء جميلا . أما هو فقد كان تعبا من مجهود يومه فى البيع ، حتى إذا سرنا فى الخارج انهمك فى تفكير محزن

أخيرا خرجت من فمه آهة طويلة ، أعقبها بقوله « مسكينة مارى »

فسألته : « ماذا بها . هل أصابها شىء ما ؟ »

فأجاب وقد نفذ صبره « وماذا تريد أكثر من أن تنحدر إلى هذا الحضيض وتنزوى فى هذا الكوخ الحقير تشتغل فيه بيديها أحقر الأعمال المنزلية »

قلت له : « وبما أنك الآن قد أجتزت أقصى مرحلة باعترافك لها بحالك فيحسن أيضا أن تبادر وتظهر حقيقة مركزك للعالم . فأنه و إن كان هذا الظهور مؤلما فأن تأثيره لا يلبث حتى يزول . وعندى أن هذا خير لك من أن تعانى فى ترددك ألم الكتمان كل يوم و كل ساعة . ليس الفقر هو الذى يزعج الرجل المعوز ، ولكنه الكفاح بين النفس السامية واليد الخالية ، والاحتفاظ بالمظهر الكاذب الذى ما أسرع أن تنكشف حقيقته . فلتكن لديك الشجاعة لأن تظهر فقيرا فبذلك تجرد الفقر من أحدّ سلاح له . » وماوصلت إلى هذه النقطة حتى وجدت « ليزلى » متأهبا لقبول نصيحتى . أما زوجه فكانت فى اشتياق لتحيا الحياة الجديدة التى تتفق وحالهما الجديدة .

مضت أيام عدة على ذلك ثم زارنى مساء . وكان قد باع مسكنه ثم اكترى كوخا صغيرا فى الريف يبعد أميالا قليلة عن المدينة ، وقد شغل طيلة يومه فى بيع أثاثاته الأولى الفاخرة . أما منزله الجديد فلم يكلفه إلا يسيرا ، ولذلك لم يبق على شىء من مفروشاته الثمينة ، إلا قيثارة زوجه ، لأنها كانت ذكرى لقصة حبهما ، فكان إذا مارآها يذكر تلك اللحظات السعيدة التى كان يصغى ، فيها إلى زوجه وهى معتمدة على هـذه القيثارة توقع عليها من أنغامها العذبة . ولم يسعنى إلا الابتسام إزاء هذا المثل الأعلى للزوج المحب الخيالى .

كان عند زيارتى متأهبا للذهاب إلى الكوخ حيث زوجه منهمكة فى ترتيبه وتنظيمه . فدفعنى سرورى بنجاح هذه القصة العائلية لأن أرافقه ، خصوصا وأنه كان مساء جميلا . أما هو فقد كان تعبا من مجهود يومه فى البيع ، حتى إذا سرنا فى الخارج انهمك فى تفكير محزن

أخيرا خرجت من فمه آهة طويلة ، أعقبها بقوله « مسكينة مارى »

فسألته : « ماذا بها . هل أصابها شىء ما ؟ »

فأجاب وقد نفذ صبره « وماذا تريد أكثر من أن تنحدر إلى هذا الحضيض وتنزوى فى هذا الكوخ الحقير تشتغل فيه بيديها أحقر الأعمال المنزلية »

فأجبته « ولكن هل سئمت هى ، وضجرت من هذا التبدل »

قال « ضجرت ! على العكس تماما . فقد ازدادت مرحا وسرورا . ولا أذكر أنى رأيتها أحسن مما هى الآن . وقد صارت لى هى كل الحب والحنو والأيناس »

فأجبته ـ وقـــد أعجبت حقا بهذه الفتاة : « ياصديقى ! أنت تدعو نفسك فقيرا ؟ إنك لم تكن أكثر غنى من الآن . ولم تكن تدرى أى كنز ثمين من الأخلاص تدخره فى هذه المرأة . »

قال : « ولكن إذا مامرت هذه المقابلة الأولى فى الكوخ أظن أنى سأكون بعدها مرتاحا . وإنمـا هذا هو اليوم الأول للتجربة الحقيقية فقد اشتغلت طول يومها فى ترتيب محتوياته الوضيعة . ولأول مرة تدرك بنفسها متاعب أعمـال الخدم . ولأول مرة تنظر حولها فلا ترى إلا منزلا مجردا من كل شىء بهيج ، بل وكل شىء مريح . وربمـا وجدناها الآن جالسة منهوكة القوى وحزينة تصور لنفسها المستقبل المظلم . »

وقد كان فى تخوفه هذا بعض الاحتمال ممـا جعلنى لاأجرؤ على معارضته فسرنا فى صمت تام .

وبعد أن عرجنا من الطريق العام إلى منحدر ضيق تظلله أشجار الغاب الكثيرة وتزيد فى وحشته ـ وصلنا إلى الكوخ . وكان مظهره الخارجى وضيعا حقا ، ولكنه مع ذلك ظهر بشكل ريفى جميل . تحيط به أشجار باسقة تكاد تحجبه عن الأنظار . وتتسلق على جدرانه شجرة كرم كثيرة الفروع والأوراق وقد استلفت نظرى خارج المنزل عدة أوان من الأزهار منظمة بشكل يدل على ذوق جميل عند المدخل . وكذلك عدة أوان أخرى على قطعة أرض خضراء أمام المنزل ، ويوصل بين الباب الخشبى الخارجى وباب المنزل ممشى يلتوى بين بعض الحشائش النامية . وعند اقترابنا سمعنا فجأة صوت موسيقى فأمسك « ليزلى » بذراعى فوقفنا وأصغينا — إنه كان صوت مارى تغنى بنغم عذب مؤثر إذ كانت تنشد أغنية يحبها زوجها كثيرا

شعرت بيد ليزلى ترتعش على ذراعى . وتقدم خطوة ليسمع بوضوح أكثر ، وسبب وقع خطوته صوتا على الحصى فى الممشى ، فأطل وجه جميل مشرق من النـافذة ثم اختفى وسمعنا وقع أقـدام خفيفة جاءت بعـدها مارى تقفز لتقابلنا . وكانت فى ثياب بسيطة بيضاء وقـــد شبكت بعض الزهور فى شعرها المنسدل . وصبغ خـدها الجميل باللون الوردى ، وكانت كل ملامحها تضيء بالابتسامات حتى أنى لم أرها أكثر جاذبية منها فى هذه اللحظة .

صاحت « عزيزى جورج . كم أنا مسرورة بقدومك ! فكم طال انتظارى لك ، وكثيرا ماخرجت من المنزل إلى الطريق متشوقة لرؤياك . وقد أعددت مائدة تحت شجرة جميلة خلف الكوخ وجمعت لك كثيرا من الكريز الذى تحبه . وأحضرت لك قشدة شهية . وكل مايحيط بنا ياعزيزى هادىء وجميل) قالت ذلك وهى لاتزال ممسكة بذراعه ثم نظرت إليه ببشاشة وقالت (سنكون سعيدين جدا ياعزيزى »

تأثر ليزلى المسكين من كل ذلك ، فضمها إلى صدره وطوقها بذراعيه وطبع على فمها قبلات حارة . ولم يتمكن من الكلام وقد انحدرت الدموع من عينيه . وقد أكد لى حينئذ بأن هذه اللحظة أسعد لديه من أيام نجاحه ومسراته السالفة

حسن شريف الرشيدى

انتظروا

الرّوايات القصصيّة

مجموعة قصص أدبيـــة ، تحتوى على ١٢ قصة ، مكتوبة بأسلوب راق ، موضوعة على نمط المحاورات ، بقلم الكاتب المتفنن الأستاذ احمد مختار الحنبلى